﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء: 59]

## ❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين هلاك القرى وعذابها، وبين كون اللّاحقين على نهج سابقيهم

لمّا ذكرتِ الآياتُ الدَّليلَ على فساد قول المُشركين في اقتراحاتهم الَّتي طلبوها إلى رسول الله ﷺ، وأتبعَ ذلك بالوعيد؛ جاءَت هذه الآيةُ لبيان سبب عدمِ الإجابةِ إلى مُقترحاتهم الَّتي كانوا يطلبونها إلى الرَّسول ﷺ[1].

ومِنَ المناسبة أيضًا: أنَّه لمّا أفادَتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ المُكذِّبين مِنَ النّاس آخرُهُم كأوَّلِهم مُستحِقّون - بما فيهم مِن غريزة الفسادِ والفسقِ - لحلول الهلاكِ وسائر أنواعِ العذابِ؛ لعدم إيمانِهم بالآيات الّتي اقترحوها على أنبيائِهم، وأنزلَها اللّهُ إليهم؛ جاءَت هذه الآيةُ لبيان سببِ عدمِ الإجابةِ إلى مُقترحات كفّارِ مكَّةَ بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾، فالمرادُ أنَّ الَّذي منعنا أن نُرسلَ بالآيات الَّتي يقترحونها أنَّ السّابقين منهم اقترحوها، فأرسلناها إليهم، فكذَّبوا بها، فأهلكناهم، وكفّارُ مكَّةَ حالُهم كحال السّابقين.

## ❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنَعَنَآ﴾: (منع): أصلٌ واحدٌ هو خِلافُ الإعطاءِ[2]، والمَنْعُ: أن تَحولَ بَينَ الرَّجل وبَينَ الشَّيءِ الَّذي يُريدهُ، يُقال: مَنَعْتُهُ، فامتَنَعَ[3]، والمانِعُ: مِن صِفاتِ الله تعالى، لَهُ مَعنَيانِ: الأوَّل: يُعطي مَن استحقَّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/ 425.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (منع).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (منع).

العطاءَ، ويَمنَعُ مَن لَم يَستَحِقَّ إلّا المَنعَ، ويُعطي مَن يشاءُ، ويَمنَعُ مَن يشاءُ، وهو العادِلُ في جميعِ ذَلِكَ، والثّاني: أنَّه ﷻ يَمنَعُ أهلَ دينِهِ، أي: يَحوطُهم، ويَنصُرُهُم[1]، وحَقيقَةُ المَنعِ في الآية: كَفُّ الفاعِلِ عَن فِعلٍ يُريدُ فِعلَه، أو يَسعى في فِعلِهِ، وهذا مُحالٌ عَنِ اللّه تعالى؛ إذْ لا مُكرِهَ للقادِرِ المُختارِ[2].

2) ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾: أصلُ (أول) يدُلُّ على ابتداءِ الأمرِ، فالأوَّلُ: هو مُبتَدَأُ الشَّيءِ، والمُؤَنَّثَةُ الأولَى[3]، يُقالُ: أوَّلُ المَطرِ قَطرَةٌ، أي: بِدايَتُهُ، والأوَّليَّةُ: ابتِداءُ الشَّيءِ، ويُطلَقُ الأوَّلُ أيضًا على الواحِدِ، يُقالُ: جاءَ النّاسُ الأوَّلَ فالأولَ، أي: بالتَّرتيبِ الواحدُ بَعدَ الآخَرِ، ويُستَعمَلُ الأوَّلُ بمعنى القَديم، كقول: ما تَرَكَ لَهُ أوَّلًا ولا آخِرًا، أي: قَديمًا ولا حديثًا[4]، والمرادُ بالأوَّلينَ في الآية: هُمُ السّابِقونَ مِنَ الأمَمِ الَّذينَ كذَّبوا رُسُلَهُم.

3) ﴿ثَمُودَ﴾: (ثمد) أصلٌ واحِدٌ، وهو القَليلُ مِنَ الشَّيءِ، فالثَّمَدُ: الماءُ القَليلُ لا مادَّةَ لَهُ، وثَمَدَتْ فُلانًا النِّساءُ؛ إذا قَطَعْنَ ماءَهُ[5]؛ ومنه سُمّيت قَبيلَةُ ثمود؛ لِقلَّةِ مائِها، وثَمودُ أُمَّةٌ مِنَ العَرَبِ البائِدَةِ العارِبَةِ، وهُم أنسابُ عادٍ، وثَمودُ: اسمُ جَدٍّ تلكَ الأُمَّةِ، ولَكِنْ غَلَبَ على الأمَّةِ؛ فلذلكَ مُنِعَ مِنَ الصَّرفِ للعَلَميَّةِ والتَّأنيثِ باعتبارِ الأمَّةِ أوِ القَبيلَةِ[6]، والمرادُ بثَمود في الآية: اسمُ جَدٍّ سُمّيَتْ بِهِ القَبيلَةُ.

4) ﴿مُبْصِرَةً﴾: أصلُ البَصَرِ وُضوحُ الشَّيءِ، يُقالُ: بَصُرَ الطَّريقُ، أي: استَبانَ ووضُحَ[7]، ويُطلَقُ البَصَرُ على حاسَّةِ العينِ، تقولُ: جاءَ كَلَمحِ البَصَرِ، أي: كَلَمحِ العَينِ، والجَمعُ: أبصارٌ[8]، والبَصيرُ والمُبصِرُ: النّاظِرُ لغَيرِهِ، وضِدُّهُ الأعمى، ويأتي البَصَرُ أيضًا بمعنى: العِلمِ والإدراكِ، وهي الرُّؤيَةُ بالقَلبِ، كَقَولِكَ: بَصُرتُ بالشَّيءِ؛ إذا عَلِمتَهُ وأدرَكتَهُ، والبَصيرَةُ: قوَّةُ الإدراكِ والفِطنَةُ والعِلمُ، والجَمعُ: بَصائِرُ[9]، والمقصودُ بـ ﴿مُبْصِرَةً﴾ في

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (منع).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أول).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثمد).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ثمد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 116.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).
(8) ابن سِيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(9) ابن منظور، لسان العرب، ونخبة من اللغويين، المعجم الوسيط: (بصر).

الآية: واضِحَةُ الدَّلالةِ، اسمُ فاعِلِ (أَبصَرَ) المُتَعَدّي إلى مَفعولٍ، أي: جَعَلَ غَيرَهُ مُبصِرًا وذا بَصيرَةٍ، فالمرادُ بها: أنَّها مُفيدَةُ البَصيرَةِ، أي: اليَقينِ، أي: تَجعَلُ مَن رَآها ذا بَصيرَةٍ، وتُفيدُهُ أنَّها آيةٌ[1].

5) ﴿تَخْوِيفًا﴾: أصلُ الخَوفِ الذُّعرُ والفَزَعُ، خافَه يَخافُه خَوفًا وخيفةً، كأنَّ الَّذي يخافُ منخوبُ الفُؤادِ[2]، والتَّخويفُ والإخافَةُ: الإفزاعُ والإرهابُ[3]، وضِدُّه: الأمنُ، وأصلُه: النَّقصُ، يُقالُ: تَخَوَّفْناهُم، أي: تَنَقَّصناهُم، وناقَةٌ خَوفاءُ، أي: ناقِصَةٌ بها داءٌ[4]، والمقصودُ بالتَّخويفِ في الآية: جَعْلُ المَرءِ خائِفًا.

## ❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عـدمُ إرسـالِ المُـعـجـزاتِ للـمُسلمين؛ تـفـاديًـا لمصيرٍ مُـشـابـهٍ للـمُمتَحَنين بالنّاقة

يُبيِّنُ اللّهُ تعالى بعضَ مظاهرِ فضلِه على هذه الأمَّةِ، فيقولُ: وما منَعَنا أن نأتيَ بالمُعجزاتِ الَّتي يقترِحُها كُفّارُ قومِكَ - أيُّها الرَّسول - إلّا تكذيبُ الأوَّلينَ بها بعدَ أن سألوها، فكذَّبوا، فعَجَّلْنا بهلاكِهم، فإذا كذَّبَ بها قَومُك؛ استحَقّوا ما استحَقَّه أولئك مِنَ الهلاكِ والعذابِ، وممّا يُؤكِّدُ ذلك أنّا آتَينا ثمودَ النّاقةَ آيةً وحُجَّةً واضِحةً موجِبةً للتَّبصُّرِ واليقينِ، ودالَّةً على وحدانيَّةِ اللّه تعالى وقُدرتِه، وصِدقِ رسولِه صالح ﷺ، فكَفَروا باللّهِ، ووقَعوا في الظُّلمِ بقَتلِها، فلمّا لم يُؤمِنوا؛ كان في إجابتِهم إلى ما سألوا مِنَ الآياتِ هلاكُهم واستئصالُهم، وما نُرسِلُ بالآياتِ الموجبةِ للعِبَرِ والعِظاتِ إلّا تخويفًا للعبادِ؛ ليُؤمِنوا، ويرتَدِعوا عمّا هُم عليه[5].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى بيانِ المانعِ مِن عدمِ إعطاءِ الرَّسولِ ﷺ المعجزاتِ الَّتي طلبَتها قريشٌ؛ إذ "قال أهلُ مكَّةَ للنَّبيِّ ﷺ: اجعلْ لنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 144.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خوف، خيف).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 638، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 73، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 91، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 461.

الصَّفا ذهبًا، ونؤْمِنُ بك، قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريلُ، فقال: إنَّ ربَّك يقرأُ عليك السَّلامَ، ويقولُ لك: "إن شئتَ؛ أصبحَ لهم الصَّفا ذهبًا، فمَن كفرَ بعد ذلك؛ عذَّبتُه عذابًا لا أعذِّبُهُ أحدًا مِنَ العالَمين، وإنْ شئتَ؛ فتحتُ لهم أبوابَ التَّوبةِ والرَّحمةِ، قال: بل بابُ التَّوبة والرَّحمة، فأنزل اللّهُ سبحانَه هذه الآيةَ""[1].

وهؤلاءِ القومُ لو جاءَتْهُمُ الآياتُ الكبارُ؛ لم يؤمنوا، فإنَّه ما منعَهُم مِنَ الإيمانِ خَفاءُ ما جاء به الرَّسولُ واشتباهُه هل هو حقٌّ أو باطلٌ؟ فإنَّه قد جاءَ مِنَ البراهينِ الكثيرةِ ما دلَّ على صحَّةِ ما جاءَ به، الموجِبُ لهداية مَن طلبَ الهدايةَ، فغيرُها مثلُها، فلا بدَّ أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرِها، فتركَ إنزالَ المُعجزاتِ الَّتي طلبَها المشركون، والحالةُ هذه خيرٌ لهم وأنفعُ[2].

## ❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

### معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾:

كَشْفُ شُبهةٍ أخرى مِن شُبَهِ تكذيبِهِم في سؤالِهمُ المُعجزاتِ

الواو في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾[3] عاطفةٌ، إذ عَطَفَتْ هذه الجملةَ على جملة ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ [الإسراء: 58]، ويكون المعنى: (إنَّما أمهلنا المُتَمَرِّدينَ على الكُفرِ إلى أَجَلِ نزولِ العذابِ، ولم نُجِبْهُم إلى ما طلبوا مِنَ الآيات؛ لعدم جدوى إرسالِ الآياتِ لِلأوَّلينَ من قبيلِهم في الكُفر على حَسَب اقتراحِهم، فكذَّبوا بالآيات)، فبهذا العطف كَشَفَ شُبهةً أخرى من شُبَهِ تكذيبِهِم؛ إذ كانوا يَسألون النَّبيَّ أن يأتيَهُم بآياتٍ على حَسَب اقتراحِهم، ويقولون: (لو كان صادقًا، وهو يَطلبُ منّا أن نُؤمِنَ به؛ لجاءَنا بالآيات الَّتي سألْناهُ)، غُرورًا بأنفسِهم أنَّ اللّهَ يَتنازَلُ لِمُباراتِهم[4].

(1) أخرجه أحمد، المُسند، برقم: (2166)، وقال مُحقِّقو المُسند: "إسناده صحيح على شرط مُسلم"، ويُنظر: البيهقيّ، دلائل النّبوّة: 2/ 272.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 461.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/ 153.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.

### بلاغةُ أسلوبِ القصرِ في أثناء السّياقِ:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، والاستثناءُ مُفرَّغٌ مِن أعمِّ الأشياء، أي: (ما تَرَكْنا إرسالَها لشيءٍ مِنَ الأشياء إلّا لتكذيب الأوَّلينَ، فإنْ كذَّبَ بها هؤلاء - كما كذَّبَ بها أولئك لاشتراكِهم في الكفر والعناد - حلَّ بهم ما حلَّ بالسّابقين).

المانعُ مِن إرسال الآياتِ تجنيبُ المؤمنين عاقبةَ التَّكذيب المُهلِك

وأبانَ هذا الأسلوبُ أنَّ الله ﷻ قادرٌ على إرسال ما يطلبون وما يقترحون مِن آياتٍ خارقةٍ، مِن نوع الآياتِ المادّيّات اللَّواتي تدركْنَ بالحواسّ الظّاهرة، إلّا أنَّ مِن سُنَّته - جلَّت حكمتُه - أنَّه إذا استجابَ لمطالب القوم، فأجرى لرسوله الآيةَ أو الآياتِ الَّتي اقترحوها، أو الَّتي يقترحونها، فلم يؤمنوا أن يهلكَهُم بعذابٍ، ويستأصِلَ شأفتَهم؛ إذ لا يكون مِنَ الحكمةِ إمهالُهم وتأخيرُهُم إلى آجالهم، وقد أثبتَتِ التَّجاربُ البشريَّةُ أنّ الخوارقَ الَّتي يقترحُها الكافرون المُعاندون الجاحدون على رسل ربِّهم، إذا أجراها الله ﷻ؛ فإنَّها لا تُغيّرُ من واقع حالِهم شيئًا، إذ هُم في قلوبهم مُستيقنون، إلّا أنَّهم جاحدون.

طالبُ المُعجزةِ معَ التَّكذيب بها، مُستوجِبٌ للاستئصال العاجِلِ

فالحاصلُ: أنَّ المانعَ مِن إرسال الآياتِ الَّتي اقترحوها هو أنَّ الاقتراحَ مع التَّكذيب موجِبٌ للهلاك الكلّيِّ وهو الاستئصال[1]، وما كان سببُ تركِ الإرسال بالآيات إلّا تكذيبَ الأوَّلينَ[2].

### بلاغةُ المجاز في ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾:

حَقيقةُ المَنعِ: كَفُّ الفاعلِ عن فعلٍ يُريدُ فعلَه، أو يسعى في فعلِه، وهذا مُحالٌ عنِ الله تعالى، إذ لا مُكرِهَ للقادرِ المُختارِ، فالمَنعُ هُنا مُستعارٌ للصَّرف عنِ الفعل وعَدَمِ إيقاعِه دونَ مُحاولةِ إتيانِه[3]،

تشريفُ أمَّةِ الإسلام بتركِ إرسالِ الآياتِ الموجِبةِ للعذابِ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 283.
(2) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 168.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.

وهو مجازٌ مُرسَلٌ بمعنى التَّركِ بعلاقة اللُّزوم، أي: ما تركنا إرسالَ الآياتِ المُقترَحةِ إلّا لتكذيب الأوَّلين بها[1]، فاستُعيرَ المنعُ لتَركِ إرسالِ الآياتِ مِن أجل صارفِ الحِكمةِ[2].

وفي هذا المجاز دَليلٌ على تشريفِ هذه الأُمَّةِ، وتفضيلِ رسولِها على سائرِ الرُّسُلِ صلواتُ اللّه عليه وعليهم؛ وذلك أنَّه ﷺ كان مِن حُكمِه في الأمم السّالفةِ أن نَزَّلَ العذابَ بكلِّ مَن كَفَر بآياته، فصرفَه عن هذه الأُمَّةِ بتركِ إرسالِ الآياتِ الموجِبةِ للعذابِ على مَن كَفَر بها[3].

### سرُّ التَّعبيرِ بالمَنع مع عدم وجودِ مَن يمنعُ:

الحِكمةُ الّتي أرادَها اللهُ مِنَ الآيات هي الّتي تمنعُ إرسالَها

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالمَنعِ، ولا يوجدُ مَن يَمنعُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الحِكمةَ الّتي أرادَها ربُّ العالَمين مِنَ الآيات هي الَّتي تَمنعُ، فاللّهُ تعالى هو الَّذي منعَ ذاتَه العَليَّةَ، كقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [الرّوم: 47][4].

### نُكتَةُ إسنادِ المنَعِ والإرسالِ إلى ضمير العَظمةِ:

تجلّي مظاهر العَظَمةِ في أفعال اللهِ ﷻ وكمالها

أسندَ المنعَ إلى نون العظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾؛ للدَّلالة على عَظَمتِه سبحانَه، وقُدرتِه لِما يريدُ فعلَه سلْبًا أو إيجابًا، والمعنى: على ما لنا مِنَ العَظمةِ الَّتي لا يعجزُها شيءٌ، ولا يمنعُها مانعٌ، مِن أن نُرسِلَ الآياتِ الَّتي اقترحوها إرسالًا يُظهرُ عَظَمتَنا على وجه العُموم[5].

### دلالةُ لفظِ الإرسالِ بينَ الحقيقةِ والمَجازِ:

تصويرُ إظهار الآياتِ بصورة الشَّيءِ المُرسَلِ المُتتابِع

قد يكونُ الإرسالُ على حقيقتِه، فيكون مفعولُ ﴿أَن نُّرۡسِلَ﴾

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 72، والخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 72.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 674، والمظهريّ، التّفسير المظهريّ: 5/ 451.
(3) القصّاب، النّكت الدّالّة على البيان في أنواع العلوم والأحكام: 2/ 174.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4409.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 455، والشِّربينيّ، تفسير الخطيب الشّربينيّ: 2/ 351.

محذوفًا، دلَّ عليه فِعلُ ﴿نُّرۡسِلَ﴾، والتَّقديرُ: (أنْ نُرسِلَ رسولَنا بالآيات)، ويجوزُ أن يكونَ الإرسالُ مُستعارًا لإظهار الآياتِ وإيجادِها بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ حيثُ عبَّرَ عنْ إيتاء الآياتِ بالإرسال، كأنَّها تتعاضدُ، وتتداعى للنُّزول، لكنَّ التَّكذيبَ وتَعَرُّقَ الفسادِ في فِطَرِ النّاسِ يَمنَعُ مِن ذلك[1].

### سِرُّ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل:

بيانُ القُدرة والعَظَمةِ المُطلَقةِ للخالِق سبحانَه

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بالمصدر المُؤوَّلِ ﴿أَن نُّرۡسِلَ﴾ دون المصدر الصَّريح (إرسالَ)؛ لوجود فَرْقٍ بينَهما، فالمصدرُ الصَّريحُ يدُلُّ على الحَدَث مِن غير زمنٍ، وهذا غيرُ مُرادٍ هنا، أمّا المصدرُ المُؤوَّلُ؛ فيَدلُّ على الحدث مع مراعاة الزَّمنِ في الرَّدِّ على مُقترحات المُشركين، في أيِّ توقيتٍ يريدُ اللّهُ فيه إرسالَ الآيات، وهذا دليلٌ على القُدرةِ والعَظمةِ المُطلَقةِ للخالق سبحانَه.

### سِرُّ التَّعبير بالباء في قوله: ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

الرَّدُّ على مُقترحات المُشركين التَّعجيزيَّة الَّتي كانوا يقترحونها

قد تكون الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ للمُصاحبة، أي: مُصاحِبًا للآيات الَّتي اقترحَها المُشركون، إذا كان معنى الإرسالِ على حقيقتِه، فيكون مفعولُ ﴿أَن نُّرۡسِلَ﴾ محذوفًا دلَّ عليه فعلُ (نرسل)، والتَّقديرُ: (أن نرسلَ رسولَنا)، ويجوز أن تكونَ الباءُ لتأكيد تَعلُّقِ فعلِ ﴿نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾، وهذا إذا كان الإرسالُ مُستعارًا لإظهار الآياتِ، وتكون ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ مفعولًا في المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6][2]، وعلى كِلا المَعنيين فالآية ردٌّ على مقترحات المُشركين الَّتي كانوا يقترحونها على النَّبيِّ، وهي أن يأتيَهم بآيةٍ، كما أُرسِلَ الأوَّلون إلى أقوامِهم، قال تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥﴾ [الأنبياء: 5]، وجاؤوهُم بآياتٍ مادّيَّةٍ، كعصا موسى،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 142.

وناقة صالح، فهذه الآياتُ الَّتي يقترحُها المشركون، قد جاءَت إلى أقوامٍ مثلِهم، فكفروا بها، ولم يَرَوا فيها الدَّلائلَ الّتي تدلُّهم على اللّه.

**معنى (أل) في ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾:**

دلَّت (ال) في قوله: ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ على العهد، أي: الآياتِ المعهودةِ مِن اقتراحهم الَّتي أخبرَ القرآنُ عنها، كقولهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعٗا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]، وقوله: ﴿قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: 48]، وقوله: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 124][1]، إلى غير ذلك ممّا اقترحوه مِنَ الآيات.

الإشارةُ إلى مُقترحاتهم المعهودة، ومطالبهم غير المعقولة

**سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ دون غيرها:**

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالآيات دونَ غيرِها، مثل: (بالمُعجزات)؛ لأنَّ الآيةَ هي العلامَةُ الثّابتةُ، وفيها العِبرةُ والعِظَةُ والدَّلالةُ على وجود اللّه وقدرته كناقة صالح، قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ [الأعراف: 73]، ولأنَّها تشمَلُ الآياتِ الكونيَّةَ والقرآنيَّةَ.

اشتمالُها على العِبرةِ والعظةِ وعلى قُدرة الله

**دلالةُ التَّعبير بصيغة الجمع في قوله: ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾:**

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بلفظ الجمع ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ دونَ الإفراد (الآية)؛ للدَّلالة على تعدُّد مَطالبِهم في الآيات الَّتي اقترحوها، إذ طلبوا آياتٍ كالَّتي سبقَت مع الرُّسل، وأيضًا طلبوا جعْلَ جبلِ الصَّفا ذهبًا، وإزالةَ جبالِ مكَّةَ، ووجودَ الأنهارِ، إلى غير ذلك ممّا يدُلُّ على تعدُّد الآياتِ الَّتي طلبوها، وفي هذا دليلٌ على شدَّة تعنُّتِهم، وإعراضِهم عن رسول اللّه ﷺ.

تعدُّدُ مَطالبِهم في الآيات المُقترَحَةِ، وشِدَّةُ تعنُّتِهم في الطَّلب

**بلاغةُ المَجاز العقليّ في إسناد المَنع إلى تكذيب الأوَّلين:**

إسنادُ المَنع إلى تكذيب الأوَّلينَ بالآيات في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ مَجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ التَّكذيبَ سببُ الصَّرف،

دورُ السّياقِ في تسلية النَّبيِّ الأكرم، وتثبيتِ أفئدة المؤمنين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 143.

والمعنى: أنَّنا نعلَمُ أنَّهم لا يُؤمنون كما لم يُؤمِنْ مَن قبلَهُم مِنَ الكفرةِ لَمّا جاءَتهم أمثالُ تلكَ الآياتِ، فَعَلِمَ النّاسُ أنَّ الإصرارَ على الكفر سَجيَّةٌ للمُشرِكِ لا يَقلَعُها إظهارُ الآياتِ، فلو آمنَ الأوَّلون عندَ ما أُظهِرَت لهُمُ الآياتُ؛ لكان لهؤلاء أن يجعلوا إيمانَهُم مَوقوفًا على إيجاد الآياتِ الّتي سَألوها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: 96 - 97]، وفي هذا المَجاز تثبيتٌ لأفئدة المُؤمنين؛ لئلّا يَفتِنَهُمُ الشَّيطانُ، وتَسليَةٌ للنَّبيِّ ﷺ لحِرصِهِ على إيمان قومِهِ، فلعلَّه يتمنَّى أن يُجيبَهُمُ اللّهُ لما سألوا مِنَ الآياتِ، ولحُزنِه مِن أن يظُنّوهُ كاذبًا[1]، ولا يخفى أيضًا معنى الرِّعاية لشأن مَن سيولدُ مِن بعضِهم مِنَ المؤمنين، ولِمَن سيُؤمِنُ مِن هؤلاء المُقترحين، إلى غير ذلك مِنَ الحِكَم الّتي لا يعلمُها إلّا هو سبحانَه[2].

**مـنـعُ إرسـال الآيـاتِ في الـلّاحـقـين؛ لـكـونـهـم على سَنَنِ السّابقين**

### بَراعةُ التَّعبير بالمضارع في الإرسال، والماضي في التَّكذيب:

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالمضارع في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ﴾، وبالماضي في الحديثِ عن تكذيبِ الأمم السّابقةِ بقوله: ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ لبيان السَّببِ الَّذي مِن أجلِه لم يَجِىءِ الرَّسولُ صلواتُ اللّه وسلامه عليه إلى قومه بآيةٍ كتلك الآيات؛ لأنَّها كانت بلاءً على مَن جاءَت إليهم، ولم يُؤمنوا بها، ولن يكونَ حالُ هؤلاء المشركين مع أيَّةِ آيةٍ يأتيهم بها النَّبيُّ بأحسن مِن حالِ الّذين سبقوهُم، واللّه ﷻ يقولُ عن هؤلاء المُشركين: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾ [الحِجر: 14 - 15][3].

وفي هذا دليلٌ على أنَّ التَّكذيبَ للآيات الّتي يُنزلُها اللّهُ على يَدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 143.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 380.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 508.

رسلِه طبيعةٌ متأصِّلةٌ في الكفّار؛ فلا فرقَ بين كفّارِ الأُمم السّابقة وكفّار مكّةَ؛ لذلك عبَّرَ بالماضي المُضَعَّفِ ﴿كَذَّبَ﴾؛ لعِلْمِ اللهِ ﷻ بأنَّهم سيُكذّبون بها إذا جاءَتهم، كما كذَّبَ بأمثالها أشباهُهُمُ الأوَّلونَ، وفي هذه الحالة: فإنَّهم سَيستَحقّون مثلَهم عذابَ الاستئصال، كما جرَت بذلك سُنَّةُ اللهِ معَ السّابقين[1].

### سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمَجرور:

الاهتمامُ بشأنِ آياتِ ربِّ العالَمين، والتَّنويهُ بِعِظَمِ أمرِها

في تقديم الجارِّ والمَجرور ﴿بِهَا﴾ على المُسند إليه ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ اهتمامٌ بهذه الآيات، فإنَّ مَرجِعَ الضَّميرِ إليها، وتأخيرُ المُسنَدِ إليه تشويقٌ لمعرفةِ المُؤَخَّرِ الَّذي كان قُدوةً للمُكذِّبين مِنَ المُتأخِّرين.

### نُكْتَةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾:

هذه الأُمَّةُ الخاتِمةُ، أهلُها هُمُ الآخِرون مقابلَ سابقيها الأوَّلين

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بلفظ ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ دون نحو: (السّابقون)؛ لأنَّ المُرادَ بالأوَّلين في هذه الآية هُم كلُّ الأمم قبلَ الأمَّةِ الأخيرةِ - الأمَّةِ الإسلاميَّةِ - وهؤلاء المُخاطَبون هُمُ الآخرون، كما قال ﷺ: "نَحنُ الآخِرونَ مِن أهلِ الدُّنيا، والأوَّلونَ يَومَ القيامةِ، المَقضيُّ لهم قَبلَ الخلائِقِ"[2]، فلا وجهَ لإرسال المُعجزاتِ المُقترَحةِ مع الرَّسول الأخير بمثل ما أُرسِلَ الأوَّلون؛ لأنَّ هذه الأُمَّةَ عَلِمَ اللهُ أنَّ فيهم مَن سيُؤمنُ منهم، وكذلك مِن أولادِهِم، ولأنَّ هذه الرِّسالةَ الأخيرةَ تختلفُ عن سائر الرِّسالاتِ السّابقةِ ببقائِها إلى يوم القيامةِ، وهذا البقاءُ يَلْزَمُ منه عَدَمُ الإهلاكِ، والمعنى: (فلا نرسلُ بالآيات إليكم - أيُّها الآخِرون - إلّا على سبيل الإنذارِ والوعظِ)[3].

(1) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 5/ 451، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 380.
(2) أخرجه مُسلم في صحيحه، الحديث رقم: (856).
(3) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 2/ 218.

### سِرُّ عدمِ إرسال الآياتِ المُقترَحة:

مـنْـعُ عـذابِ الاستـئـصـالِ تـكـريـمٌ للمُصطفى ﷺ

لم يُرسِلِ اللهُ ﷻ الآياتِ الَّتي اقترحَها كفّارُ مكَّةَ؛ لعِلْمِ اللهِ تعالى الأزليِّ بأنَّهُم لم يُؤمنوا بها، ويَلْزمُ على عدم إيمانهم بها - إن أُرسِلَتْ - أن يستحقّوا عذابَ الاستئصال، وهذا غيرُ مُرادٍ؛ لأنَّ اللهَ يريدُ أن يُخرج من أصلابهم من يؤمن بالله، وبيانًا لفضل رسولِ الله ﷺ على هذه الأُمَّة؛ لأنَّ اللهَ ﷻ منعَ عذابَ الاستئصالِ تكريمًا له ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33].

### معنى الواو في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا﴾:

تبيانُ الحُكمِ السّابقِ بِذِكرِ مثالٍ عليه يَعرفُه المُخاطَبون

عُطِفَت جملة ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ على ما يُفصحُ عنه النَّظمُ الكريمُ، كأنَّه قيلَ: (وما منعنا أن نُرسِلَ بالآيات إلّا أن كذَّبَ بها الأوَّلونَ؛ إذ آتيناهُم ما اقترحوا مِنَ الآيات الباهرةِ فكذَّبوها، والدَّليلُ على ذلك: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ بسؤالِهم واقتراحِهم على نبيِّهم صالح ﷺ، وأخرجناها لهم مِنَ الصَّخرة، فعقروها[1]؛ فأرسلْنا عليهمُ العذابَ).

### دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿وَءَاتَيْنَا﴾ صيغة ومادّة:

إظـهـارُ قـدرةِ اللهِ وعَظَمتِه بفصيحِ البيان، تحـقُّـقُ إرسـالِ ناقةِ قومِ صالحٍ بيقين البرهان

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ عن إجابةِ مَطلبِ قومِ صالحٍ في أمر النّاقة بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا﴾ الَّذي يُدَلِّلُ على السُّهولة في فعل الشَّيءِ مهما كانت صعوبتُه؛ لأنَّ اللهَ لا يعجزُهُ شيءٌ، ولو كان خارجًا عن نطاق العقلِ والعادةِ، كما في مَطلَب قومِ صالح، فأمرُهُ بينَ الكاف والنّون، وهذا دليلٌ على عَظَمَة قُدرته، وأنَّه لا يَحُدُّها شيءٌ؛ لذلك كان إسنادُ الإيتاءِ إلى نون العظمةِ دليلًا على مُطلَقِ قُدرته وعَظَمته.

وعبَّرَ بالفعل الماضي ﴿وَءَاتَيْنَا﴾ في أمر ناقةِ صالح؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الوقوع، وأنَّها أُرسِلَت لقومِ صالحٍ، ورأَوْها، وشَربوا مِن لَبَنها، ومع ذلك اعتَدَوا عليها.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 98، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 177.

### نكتةُ إسناد إتيان النّاقةِ لثمودَ دون صالحٍ عليه السلام:

بيانُ أنَّهم طلبوها وجحدوها، فصارَت حُجَّةً عليهم

خصّ القرآنُ الكريمُ إتيانَ النّاقةِ إلى قبيلة ثمودَ دونَ إسنادِها لصالحٍ عليه السلام في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾، مع أنَّ اللّهَ آتاها لصالحٍ حُجَّةً له عليهم؛ لأنَّهم هُمُ الّذين طلبوها، ومع ذلك كفروا بها، وضلّوا، فصارَت حُجَّةً عليهم.

### سِرُّ إيثارِ (ناقة ثمود) بالذِّكر دون غيرها مِنَ المُعجزات:

آثارُ هلاكِ ثمودَ معلومةٌ لأهل مكَّةَ قريبةٌ منهم

خُصَّت ناقةُ ثمودَ بالذِّكر دون غيرِها في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾؛ لأنَّ آثارَ هلاكِهم في بلاد العربِ قريبةٌ منهم، يُبصرُها صادرُهم وواردُهم[1]، ولهم مِن عِلمِها، وعِلْمِ مَساكنِهم بقُربِها إليهم، وكونِها في بلادِهم، ما ليسَ لهُم من عِلْمِ غَيرِها[2]؛ لذا قدَّمَ تعالى تكذيبَ قبيلةِ ثمودَ على عادٍ بيوم القيامة، مع كونهم مُتأخِّرين زمنًا عليهم بقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ [الحاقّة: 4]؛ لأنَّهم أكثرُ الأُمم المُكذِّبة شُهرةً عند المُشركين مِن أهل مكَّةَ؛ ولأنَّهُم مِنَ الأمم العربيَّةِ؛ ولأنَّ ديارَهُم مجاورةٌ لهُم[3]، وقد كانت قِصَّةُ هذه النّاقة، وقصَّةُ صالحٍ عليه السلام وقومِه مُتداولةً بينهم، وفي هذا التَّخصيص تحذيرٌ لكفّار مكّةَ بسبب أنَّ ثمودَ عربٌ مثلُهم، اقترحوا ما كان سببًا لاستئصالِهم.

النّاقةُ خارجةٌ مِنَ الصَّخرِ، والمقامُ إثباتُ قُدرةِ اللهِ على الإعادة

ويرتبط ذكر النّاقة بسياق السورة في إثبات القُدرةِ على إعادة الخلق - حتى لو كان حِجارةً أو حديدًا - قال تعالى: ﴿*قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠﴾ [الإسراء: 50]؛ فطالما كانت الناقة حَيَوانًا أخرجَهُ اللّهُ مِنَ الحَجَر كدليل وبرهان ماثل، كان أمر حصول مثله مفهومًا في عقول المتأملين؛ وفي ذلك دلالة على دقّة العبارةِ وعظيمِ مَوقعِها[4].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/ 360، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 381.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 456.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 115.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 456.

### بلاغةُ استعارة لفظ ﴿مُبۡصِرَةً﴾ للنّاقة:

جَـدارةُ النّـاقةِ بـكـونـهـا لـلاسـتـبـصـار، وأنَّ وجـودَهـا للاعتبار

استعارَ القرآنُ الكريمُ لفظَ ﴿مُبۡصِرَةً﴾ للنّاقة للتّعبير عنِ الوضوح والاعتبار، فقوله تعالى: ﴿مُبۡصِرَةً﴾، أي: واضحةَ الدّلالة، وفي وصفها بأنَّها مُبصِرةٌ إشارةٌ إلى أنَّها كانت آيةً واضحةً، وأنَّها كانت تعيشُ معَ النّاس، بينَ سمعِهم وبصرِهم، وتتمشّى بينَهم، يَمرّون بها مُصبحين ومُمسين، وليسَت كعصا موسى، ولا يدِ عيسى ﷺ، فكلتاهما تظهرُ المعجزةُ فيهما بإذنٍ مِن صاحبِها، ثُمَّ تختفي، دون أن يُتاحَ للنّاس تقليبُها، وترديدُ النَّظر فيها[1].

وقد يكون معنى: ﴿مُبۡصِرَةً﴾ ذاتَ إبصارٍ، أي: فيها إبصارٌ لِمَن تأمَّلَها، يُبصِرُ بها رُشدَهُ، ويَستدِلُّ بها على صدقِ ذلك الرَّسولِ[2]، فالإبصارُ على هذا المعنى استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ؛ شَبَّهَ فيها النّاقةَ بالبرهان السّاطعِ والدَّليلِ القاطعِ المُفضي إلى التَّصديق والاعتبار، والمعنى: جعلْنا النّاقةَ آيةً مُبصِرةً للعاشي، ومُذكِّرةً للنّاسي، ومظنَّةً لاعتبار المُعتبِر، وتفكُّرِ المُفكِّرِ؛ لأنَّ مِن عجائب تلك النّاقةِ تمَخُّضَ الصَّخرةِ بها مِن غير حَملِ بطنٍ، ولا فَرْعِ فَحْلٍ، فهي جديرةٌ بأن يَستَبصرَ بها كُلُّ مَن شاهدَها[3].

### دلالةُ صيغةِ اسم الفاعل ﴿مُبۡصِرَةً﴾:

الإشـــارةُ إلى كـونِـهـا مُـفـيـدةً لـلـبـصـيرة، مُرَسّيَةً لليقين

ورَدَ التَّعبيرُ بـ﴿مُبۡصِرَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً﴾ اسمَ فاعلٍ من (أبصر) المُتعدّي إلى مفعولٍ، أي: جعلَ غيرَهُ مُبصِرًا وذا بَصيرة، والمعنى: أنَّها مُفيدةُ البَصيرةِ، أي: اليقين، أي: تَجعلُ مَن رآها ذا بصيرةٍ، وتُفيدُهُ أنَّها آيةٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَتُنَا مُبۡصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ [النّمل: 13][4]؛ فصيغةُ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 508.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 359.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 456.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 144.

اسم الفاعل حالٌ مِنَ النّاقة، والمرادُ ذاتُ إبصارٍ أو ذاتُ بصيرةٍ، يُبصرُها الآخَرُ، ويَتبصَّرُ بها[1].

### بلاغةُ المَجازِ العقليِّ في إضافة الإبصارِ إلى النّاقة:

النّاقةُ سببٌ في التَّبصُّر، وآيةٌ للتَّفكُّر

أُضيفَ الإبصارُ إلى النّاقة في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ على سبيل المَجازِ، والتَّقديرُ: (آيةٌ مُبصِرَةٌ)[2]، فهو إسنادٌ مجازيٌّ؛ إذِ المرادُ إبصارُ أهلِها، ولكنَّها لمّا كانت سببًا في الإبصار؛ نُسِبَ إليها على سبيل المجاز العقليِّ، والظّاهرُ أنَّ المرادَ الإبصارُ المعنويُّ، وهو الاهتداءُ بها، والتَّوصُّلُ بها إلى تصديق نبيِّهم، وعلى هذا تظهرُ السَّببيَّةُ، فإنَّ وجودَها سببٌ في هذا المعنى[3]؛ لأنَّها سببٌ في التَّبصُّر والاعتبار والاهتداء[4].

### معنى الفاء في قوله: ﴿فَظَلَمُواْ﴾:

الفاء في ﴿فَظَلَمُواْ﴾ للسَّببيَّة؛ إذ جعلوا الآيةَ سبَبًا لكفرهم لِسَقَمِ قلوبِهم، مع أنَّها سببٌ للإيمان في نفس الأمر[5].

### نُكْتَةُ العُدولِ عن ذِكرِ التَّكذيبِ إلى ذِكرِ الظُّلم:

بيانُ معنى الظُّلمِ في عُمومِه وشمولِه

آثرَ التَّعبيرَ بالظُّلم بدلًا مِنَ التَّكذيب في قوله تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾؛ لأنَّه يجوزُ أن يكونَ الظُّلمُ بمعنى الكفرِ؛ لأنَّه ظُلْمُ النَّفسِ، ويجوزُ أن يكونَ الظُّلمُ مُضَمَّنًا معنى الجَحْدِ، أي: كابَروا في كونها آيةً، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النَّمل: 14]، ويجوزُ بَقاءُ الظُّلمِ على حقيقتِه، وهو الاعتداءُ بدون حَقٍّ، أي: ظلموا النّاقةَ حينَ عَقَروها، وهي لم تَجنِ عليهم، فكانَ عَقْرُها ظُلمًا، والاعتداءُ على العَجماوات ظُلمٌ؛ إذا كان غيرَ مَأذونٍ فيه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 98.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 72.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 380.
(4) الصّاويّ، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/ 325.
(5) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/ 534.

شرعًا كالصَّيد[1]، والمعنى على كلِّ هذا: فكفروا بها ظالمين، أي: لم يكتفوا بمجرَّدِ الكفرِ بها، بل فعلوا بها ما فعلوا مِنَ العَقر، وظلموا أنفسَهم، وعرَّضوها للهلاك بسبب عَقرِها[2].

**دلالةُ القيد بالجارّ والمَجرور ﴿بِهَا﴾:**

إفادةُ التَّعدية وتأكيدُها بحسب معاني الظُّلم

يجوزُ أن تكونَ الباءُ للتَّعدية؛ إذا استُعمِلَ الظُّلمُ بمعنى الكفرِ؛ لأنَّ فعلَ الكفرِ يُعدَّى إلى المَكفورِ بالباء، وإذا كان الظُّلمُ على حقيقتِه؛ فالباءُ صِلَةٌ لتوكيد التَّعدية؛ لأنَّ الظُّلمَ يتعدَّى بنفسِه، فالمعنى: فظلموا أنفسَهم بقتلِها، أي: بسببِه[3].

**معنى الواو في جملة: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ﴾:**

بيانُ حال إرسالِ الآيات، وكونه تخويفًا مِنَ العذاب

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ للحال، والجملةُ حاليَّةٌ مِن ضمير ﴿فَظَلَمُواْ﴾، أي: فظلموا بها، ولم يخافوا العاقبةَ، والحالُ: أنّا ما نُرسِلُ بالآيات الَّتي هي من جُملَتِها إلّا تَخويفًا مِنَ العذابِ الَّذي يَعقِبُها، فَنَزَلَ بهم ما نَزَلَ[4].

**نُكتَةُ إسنادِ الإرسالِ إلى ضمير العَظَمةِ في ﴿نُرۡسِلُ﴾:**

تجلّي مظاهرِ العَظَمةِ في أفعال الله ﷻ

في إسناد الإرسال إلى ضمير العَظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ بيانٌ لعظمة هذا الإرسال، أي: (بما لنا مِنَ الجلالةِ الَّتي هي بحيث تذوبُ لها الجبالُ)[5].

**عِلَّةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾:**

بيانُ تنوُّعِها وكونِها مُتعدِّدةَ الحِكَمِ والغايات

عَبَّرَ القرآنُ الكريم بالآيات؛ لأنَّها تُطلَقُ على معانٍ عديدة اختُلِفَ في تفسيرها في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ على وجوهٍ، أهمُّها: **الأوَّل**: أنَّ المُرادَ بها العِبَرُ والمُعجزاتُ الَّتي جعلَها الله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 144.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 5/ 177.
(3) الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 168، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 144.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 98.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 456.

على أيدي الرُّسلِ، مِن دلائل الإنذارِ تخويفًا للمُكذِّبين، **والثّاني**: أنَّها آياتُ الانتقامِ تخويفًا مِنَ المَعاصي، **والثّالث**: آياتُ القرآن، **والرّابع**: الموتُ الذَّريع.

والمُناسِبُ للمَقامِ أن تُفسَّرَ الآياتُ المذكورةُ بالآيات المُقترَحةِ، أي: لا نرسلُ الآياتِ المُقترَحةَ إلّا تخويفًا مِن نزول العذابِ، فإنْ لم يخافوا؛ وقعَ عليهم[1].

### سِرُّ التَّعبير بالجمع دون الإفرادِ في لفظ ﴿بِٱلْآيَٰتِ﴾:

لفظُ الآيات يدُلُّ على التَّعدُّدِ؛ لاشتمالها على آياتٍ كثيرةٍ

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالجمع في ﴿بِٱلْآيَٰتِ﴾ دونَ الإفراد؛ لأنَّها وإن كانَت واحدةً في ذاتها فهي مُتعدِّدةٌ في اشتمالها على آياتٍ كثيرةٍ، فالنّاقةُ - مثلًا - وإنْ كانت شيئًا واحدًا، لكنَّها مُشتملةٌ على آياتٍ كثيرةٍ؛ مِن ظُهورها مِنَ الصَّخرة الصَّمّاء، وظُهور سقيها عقيبَ خروجِها، وعِظَم ضَرعِها، وكثرةِ دَرِّها، وغير ذلك[2].

### بلاغةُ القصر في ختام الآية:

الإرسالُ بالآيات بعِلَّةِ التَّخويف رحمةٌ بالأمَّة مِنَ الرَّبِّ اللَّطيف

القصرُ في قوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ لقَصْر الإرسالِ بالآيات على عِلَّة التَّخويف، وهو قصرٌ إضافيٌّ، أي: لا مباراةَ بين الرُّسل وأقوامِهم، أو لا طمعًا في إيمان الأقوامِ، فقد علمنا أنَّهم لا يؤمنون.

وفي هذا القَصر بيانٌ لحِكمةٍ أُخرى في ترك إرسالِ الآياتِ إلى قريش، تُشيرُ إلى أنَّ اللّهَ تعالى أرادَ الإبقاءَ عليهم؛ ليَدخُلَ منهُم في الإسلام كثيرٌ، ويكونَ نشرُ الإسلام على يدِ كثيرٍ منهم، وتلك مَكرُمَةٌ للنَّبيِّ ﷺ، فلو أَرْسَلَ اللّهُ لهم الآياتِ كما سألوا - مع أنَّ جبلَّتَهُمُ العِنادُ - لأصَرّوا على الكفرِ، فَحَقَّت عليهم سُنَّةُ اللّهِ الّتي قد خلَت في عبادِه، وهي الاستئصالُ عَقِبَ إظهارِ الآياتِ؛ لأنَّ إظهارَ الآياتِ

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/ 412، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 383.
(2) زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/ 397.

تخويفٌ مِنَ العذاب، واللّهُ أرادَ الإبقاءَ على هذه الأمَّةِ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: 33] الآيةَ، فعوَّضَنا تخويفَهم بَدَلًا عن إرسال الآياتِ الّتي اقترَحوها(1).

### نُكْتَةُ ذِكرِ التَّخويف في مَقام إرسالِ الآياتِ:

حَـمـلُ الـنّـاس عـلى الـتَّـفـكُّـر والـتَّـأمُّـل مِـن خلال تخويفِهم بالآيات

المقصودُ الأعظمُ مِن إظهار الآياتِ أن يُسْتَدَلَّ بها على صِدقِ المُدَّعي، ولكن حُصِرَ المَقصودُ هُنا مِن إظهارِها في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ في التَّخويف؛ لأنَّ النَّبيَّ إذا أظهرَ الآيةَ وسَمِعَ الخَلْقُ أنَّه أظهرَ آيةً؛ فَهُم لا يَعلمون أنَّ تلك الآيةَ مُعجِزةٌ أو مُخَوِّفةٌ، إلّا أنَّهم يُجَوِّزون كونَها مُعجزةً، وبتقدير أن تكونَ مُعجزةً، فَلَو لم يتفكَّروا فيها، ولم يَستدِلّوا بها على الصِّدقِ؛ لاستحقّوا العِقابَ الشَّديدَ، فهذا هو الخوفُ الّذي يَحمِلُهم على التَّفَكُّرِ والتَّأمُّلِ في تلك المُعجزاتِ، وهو المُرادُ بإرسال الآيات(2).

وإنْ أرادَ بالآيات هُنا المُقترَحة؛ فالمعنى: أنَّه يُرسلُ بها تخويفًا مِنَ العذاب العاجلِ وهو الإهلاكُ، وإنْ أرادَ المُعجزاتِ غيرَ المُقترَحةِ؛ فالمعنى: أنَّه يُرسِلُ بها تخويفًا من عذاب الآخرةِ؛ ليَراها الكافرُ، فيُؤمن(3).

## ❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

### المَنع والصَّدُّ:

الصَّدُّ عُدولٌ عنِ الـشَّيء بقصد المَنعِ، والمَنْعُ أعمُّ وأشملُ

المَنعُ: أن تَحولَ بينَ الرَّجُلِ والشَّيءِ الَّذي يُريدهُ، يُقال: مَنعتُهُ فامتنعَ، ورَجلٌ مَنيعٌ: لا يُخْلَصُ إليهِ، وفلانٌ في عزٍّ ومَنعةٍ(4)، والصَّدُّ: هو المَنعُ عن قصد الشَّيءِ خاصَّة، ولهذا قالَ اللّه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي: يمنعون النّاسَ عن قصده(5).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 144.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 359.
(3) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/ 449.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (منع).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 114.

### البَعْثُ والإرسال:

البعثُ فيه التَّنبيهُ والإيقاظُ، والإرسالُ فيه الرِّفقُ والتُّؤَدةُ والهُدوءُ

أصلُ البَعثِ في اللُّغة: الإثارةُ والتَّوجيهُ والتَّنبيهُ[1]، ثمَّ يختلفُ البعثُ باختلاف ما عُلِّقَ به، فتارةً يكون عامًّا في معنى توجيهِ الحَيِّ وإثارتِهِ مِن مكانٍ يَلْزمُه بقوَّةٍ، فيندفعُ ناهضًا[2]، كما يُقالُ: بعثتُ البعيرَ، أي: سَيَّرتُهُ، وبعثتُ رسولًا، أي: وجهتُه، والبَعثُ إيقاظٌ مِنَ النَّوم، وتنبيهٌ مِنَ الغفلة والضَّلالة، وإحياءُ اللهِ للمَوتى: بَعثٌ لهم، وتجتمعُ هذه المعاني في التَّوجيه والتَّنبيه.

وأمّا الإرسال؛ فأصلُه في اللُّغة: توجيهُ الشَّيء برفقٍ وتُؤَدَةٍ ورحمةٍ، ومنه التَّرسُّلُ في الكلام والمَشْي، أي: الهُدوء والتَّأني وعدمُ العَجَلة، ومنه قولهم: على رِسْلك، أي: تَرَفَّقْ وتَأَنَّ في القول أو الفعل، والرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهلُ، والاسترسالُ: الطُّمأنينةُ والسُّكونُ.

وبهذا يتَّضِحُ أنَّ البعثَ والإرسالَ يشتركان في معنًى لغويٍّ عامٍّ، هو التَّوجيه[3]، ويختلفان في: أنَّ البَعثَ: يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ، والإرسالَ: يتميَّزُ بالرِّفق والتُّؤدة والهدوء.

والاستعمالُ القرآنيُّ للكلمتين يدورُ حول المعاني اللُّغويَّة المَذكورة، ولكن لِكُلِّ سياقٍ ملامحُ دلاليَّةٌ تُميِّزُ اللَّفظَ[4].

### الإيتاء والإعْطاء:

الإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ دلالةً واستعمالًا

لا يكادُ أهلُ اللُّغة يُفرِّقون بينَ الإيتاء والإعطاء، لكن نجدُ في الاستعمال القرآنيِّ بعضَ الفروق الدَّقيقة الَّتي توحي ببلاغة القرآن وعظمته، وذلك مِن حيثُ إنَّ الإيتاءَ أقوى مِنَ الإعطاء في إثبات مَفعولِه؛ لأنَّ الإعطاءَ له فعلٌ مطاوعٌ، تقول: أعطاني فعَطوتُ، ولا يُقالُ في الإيتاء: آتاني فأتيتُ، وإنَّما يُقالُ: آتاني

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).
(3) الرَّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رسل).
(4) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 136.

فأخذتُ، والفعلُ الَّذي له فعلٌ مطاوعٌ أضعفُ في إثبات مفعولِه مِنَ الَّذي لا مطاوعَ له[1].

فالإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاء، قال تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلكَ شيءٌ عظيمٌ لا يُعطاهُ إلّا مَن له قوَّة، وكذا ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 269]، والحِكمةُ شيءٌ عظيمٌ أيضًا، وقال: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحِجر: 87] لعِظَم القرآنِ وشأنِه[2].

في الإيتاءِ وُجوبٌ والتِزامٌ، وفي الإعطاءِ تَفَضُّلٌ وإكرامٌ

ومِنَ الفروق أيضًا: أنَّ الإتيانَ فيه معنى الوجوبِ والالتزام، أمّا الإعطاءُ؛ ففيه معنى التَّفضُّلِ والإكرام؛ فمثلًا بعد أن أسعدَ اللّهُ المؤمنين بدخول الجنَّة قال: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود: 108]، وقال: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النّبأ: 36].

ومِنَ الفروق أيضًا: أنَّ العطاءَ يكون في الأشياء المادّيَّة، ويُفيدُ التَّكرارَ، نحو: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]، أي: (سيتكرَّرُ شُربُك - يا محمَّد ﷺ - كثيرًا مِن نهر الكوثر)، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضّحى: 5]، أي: (سيكون عطاءُ اللّه لكَ مُكرَّرًا حتَّى تبلغَ درجةَ الرِّضا)[3]، أمّا الإتيانُ؛ ففي الأشياء المادّيَّة والمعنويَّة، قال سُبحانه: ﴿*وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: 20][4].

الإعطاءُ دَليلُ التَّمَلُّكِ

ومِنَ الفروق أيضًا: أنَّ الإعطاءَ دليلُ التَّملُّكِ دونَ الإيتاء[5]، فالإيتاءُ يشملُهُ النَّزعُ، بمعنى: أنَّه ليس تمليكًا، ولكنَّ العطاءَ تمليكٌ، والإيتاء ليس بالضَّرورة تمليكًا؛ لأنَّ الإعطاءَ هو إيصالُ الشَّيء إلى الآخذ له، وكَثُرَ استعمالُ الإعطاء، حتَّى صار لا يُطلَقُ إلّا على التَّمليك، فيُقالُ: أعطاه مالًا؛ إذا ملَّكَهُ إيّاه.

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 367 - 368، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/ 367، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(3) الكفويّ، الكلّيّات: 212، والسّيوطيّ، الإتقان: 2/ 367.
(4) صلاح لاشين، من أسرار التَّعبير في القرآن الكريم: 71 - 77.
(5) الكفويّ، الكلّيّات: 1/ 360، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 86.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
---
227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث
---
الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»